ملامح الشعر الفلسطينى المعاصر بعد الاحتلال

دكتر عزت ملا ابراهيمى[1]

دانشيار دانشگاه تهران

(از ص ۱۱۹ تا ۱۳٦ص)

تاريخ دريافت مقاله ۱۳۸۹/۱۱/۰٦ پذيرش ۱۳۹۰/۰۷/۱۵

الملخّص:

بعد حلول نكبة عام ۱۹٤۸م و وقوع الأراضى العربية فىقبضة العصابات الصهيونية و تشكيل الكيان الإسرائيلى الغاصب، حدثت حركة نزوح واسعة للاجئين الفلسطينيين نحو البلدان العربية و كذلك داخل الأراضى الفلسطينية فىالضفة الغربية و قطاع غزة، و منذ ذلك الحين لم ينعم هؤلاء اللاجئين بالأمن و الاستقرار السياسى طيلة حياتهم، و ما من شكّ فإنّ هذه الأوضاع المضطربة قد انسحبت آثارها على مقولات الشعر الفلسطينى الذى عاش فترة مظلمة حالكة مزّقتها حوادث التشريد و النفى و القتل و السلب و النهب و مصادرة الأراضى و الأملاك و التخريب و الدمار علاوة على معاناة سياسية مؤلمة، و قد أتاحت هذه الأحداث للشاعر الفلسطينى أن يكون شاهداً على محنة أبناء جلدته و آلامهم، فسجّلها فى أعماله الشعرية، و هو ما يفسّر الرابطة العضوية التى تولّدت بين الشعر _ بشقّيه فىداخل الأراضى المحتلة و فىالمهجر_ و بين الجماهير، فألهب أجساد الفدائيين الفلسطينيين بروح النضال و نخوة تحرير الوطن من براثن الاحتلال، و عزّز خطواتهم على طريق ترسيخ الحركة الوطنية.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، الشعر المعاصر، النكبة، إسرائيل، اليأس

---

۱. نشانى پست الكترونيكى نويسنده: mebrahimi@ut.ac.ir

Archive of SID

www.SID.ir

مقدّمة:

مع‌اشتعال نيران الحرب العربية الإسرائيلية فی‌عام ۱۹٤۸م، اضطلع الشعراء الفلسطينيون بدور مشرّف فی‌هذا الصراع المصيری، دفاعاً عن وطنهم و شرفهم، حيث لم يتوانوا عن بذل الغالی و النفيس فی‌سوح الوغی من أجل تحرير بلادهم، و لم يكن شیء أغلی من الروح ليقدّموها هدية متواضعة لعيون الوطن، فمنهم من شرب شهد الشهادة و قدّم نفسه قرباناً علی مذبح الحرية، مثل الشاعر عبدالرحيم محمود، و منهم من تجرّع غصص التشريد و النزوح و الإقامة فی‌البلدان العربية، و آخرين صمدوا فی‌وطنهم و أرضهم يلعقون جراح الاحتلال و مأساته. و من الطبيعی أن تؤثّر مشاهد التشريد و النفی و المجازر الجماعية كمجزرة دير ياسين و مظاهر الخراب و الغارات و السلب و القتل، و كذلک ظروف الحرمان و الفقر و ما تفرزه من يأس و معاناة، و أخيراً و ليس آخراً سياسة فرض الإقامة الجبرية التی اتبعتها سلطات الاحتلال و قمع الحريات الفردية و غيرها الكثير من المحن، أقول كل هذه المشاهد طبعت محتوی الشعر الفلسطينی المعاصر بمرحلة الاحتلال و آثاره.

و هكذا، جسّد شعراء فلسطين معاناة شعبهم بعد النكبة جراء الاحتلال، حيث تضمّنت أشعارهم إدانة و استنكاراً لتحقّق المشروع الصهيونی بمساعدة الاستعمار العالمی القديم، كما حاولوا أن يرسموا فی قصائدهم الجياشة بالحزن و العاطفة لوحات تعبّر عن حالة الشوق و الحنين للعودة إلی الوطن، و ذرفهم دموع الحسرة علی فراقه. و لكن مع ذلک كان شعرهم مفعم بالأمل الوضاء، و حرارة النضال و التضحية من أجل تحرير الوطن. و فی‌ظلّ الظروف الجديدة التی سادت المناخ السياسی فی‌فلسطين، انطلق الشعر الفلسطينی إلی آفاق رحبة، تجلّی فی‌تعاطی الشعراء الفلسطينيين فی الشتات بداية الأمر مع موضوعات الحرب و المجازر و الخراب و التشريد، علاوة علی مشاهد الفقر و الجوع و الغربة التی ملأت كل زاوية من زوايا المخيمات الفلسطينية. و العنصر البارز فی‌قصائدهم الذی أعطی نكهة خاصة للشعر الفلسطينی هو حلم العودة إلی الوطن الذی

Archive of SID

www.SID.ir

کان یختلج فی‌وجدان الشاعر الفلسطینی القابع فی‌المخیمات. و لم یختلف الشعر فی‌ظلّ الاحتلال فی‌مضامینه و قوالبه عن شعر الشتات إلا فیما ندر. إذ کان شعرهم یطفح بالألم و المعاناة من قسوة الغربة و التشرّد و التمییز العنصری و مصادرة الأراضی و الأملاک و اعتقال مواطنیهم إلخ. فی هذه المقالة، نحاول بدورنا، أن نستطلع مختلف زوایا الشعر الفلسطینی المعاصر و ما آلت إلیه أحواله فی ظل الاحتلال، و أن نسلّط الضوء علی أهمّ موضوعاته و أغراضه.

الشعر الفلسطینی و تأثّره بظروف الاحتلال

لقد طرأت تحولات واسعة علی الشعر الفلسطینی و لا سیّما بعد الثورة العارمة التی عمّت الأراضی الفلسطینیة فی الفترة ۱۹۳٦ – ۱۹۳۹م، و کانت فترة متمیّزة تفجّرت فیها قرائح الشعراء الفلسطینیین بالعاطفة الصادقة و المشاعر العمیقة، و أصبح الشعر مرآة صادقة تعکس ما یجیش فی‌أعماق الشاعر من حسّ و إبداع و ترانیم روحانیة حلّقت به فی‌آفاق الرقی و التطور، لتتکامل أغراضه و وسائله و أسالیبه. و بعد نکبة عام ۱۹٤۸م المشؤومة و احتلال فلسطین، دخل الشعر الفلسطینی المعاصر منعطفاً جدیداً زاد من وتیرة تحولاته عن ذی قبل. بید أنّ قصائد الشعراء الذی عانوا مرارة التشرید و النزوح إلی دول الجوار العربیة، لم تشهد تغیّراً ملموساً، حیث واصلوا اجترار نفس الأسالیب الشعریة التی علتها مسحة من الحزن و الألم و الحسرة، مع فارق واحد و هو أنّهم بدأوا بتوجیه سهام غضبهم نحو الحکام العرب الذین قلبوا ظهر المجن للفلسطینیین فی أحلک الظروف و نفضوا أیدیهم من القضیة الفلسطینیة لاهثین وراء الحلول الاستسلامیة.

لقد ذرف شعراء فلسطین الدمع علی الظروف المزریة التی استجدّت بعد الاحتلال، و عبّروا عن الخوف و القلق من المصیر الأسود الحالک الذی ینتظرهم، و أیقنوا بأنّ طریق العودة إلی الوطن لا یمرّ عبر القرارات الدولیة أو الوساطات، بل من خلال فوهة البندقیة و الإرادة الفولاذیة الصلبة للشعب، و التعبئة الشاملة و توحید الصفوف و النضال المستمر

Archive of SID

www.SID.ir

حتی تحقیق الأهداف. و لهذا نری بأنّ الشعر الفلسطینی بعد النکبة قد اشتغل بهموم الفاجعة و الأحداث المأساویة التی أفرزتها، و غابت عنه الألوان التقلیدیة المتمثلة بالغزل و الوصف و الرثاء، و نادراً ما یجد القارئ فیشعر هذه المرحلة ملامح من وصف الطبیعة، أو تعابیر الغزل و الوجدان، بل اقتصرت أغراضه علی الوطن و المقاومة و المعرکة و الصمود و التضحیة و الفداء ... إلخ، و شکّلت موضوعات التشرّد و اللجوء مادة رئیسیة فیه، و الحقیقة أنّ هذا الشعر قد بلغ ذروة النضج و الوعی علی ید شعراء الداخل، و بشکل عام اتّسم بالتماسک و القوة و المتانة قیاساً لشعراء الشتات، و ظهرت فیه بوادر التحدیث و الإبداع (یوسف، ص٦).

علیالرغم من سیطرة روح الیأس و البؤس علی أولئک الشعراء بسبب رزوحهم تحت نیر الاحتلال و بطشه. لکن معظهور المؤشرات و الحوادث المتلاحقة فیالعالم العربی، تبدّد هذا الیأس شیئاً فشیئاً، و بدأ الأمل یعود إلی الشارع الفلسطینی لتعود معه الروح إلی الجسد الفلسطینی المنهک، و لا سیّما بعد شنّ العدوان الثلاثی علی مصر (إسرائیل و إنجلترا و فرنسا) عام ۱۹۵٦م و سطوع نجم الرئیس جمال عبد الناصر الذی کان یحظی باحترام و شعبیة واسعتین فیأوساط الجماهیر الفلسطینیة باعتباره بطل القومیة العربیة، و محیی طموحاتها، لذلک أخذت الآمال تنتعش فی ظلّ انحسار أجواء الیأس، و عرف الشعر الفلسطینی حالة من المخاض العسیر أسفر عن ظهور عناصر الصمود و المقاومة و الإصرار فیأغراضه، و قد رأی الشعراء فیعبد الناصر الرمز الذی رسم لهم صورة زاهیة عن المستقبل، و أنّ باستطاعته تحقیق أحلامهم الوردیة فیالعودة إلی الوطن، و قد تجلّی ذلک بوضوح فی دیوان الشاعر محمود شفیق الحوت (ملاحم عربیة، ص۱۰۳- ۱۳۰،۲۰۳- ۲۰٦) الذی تضمّن قصائد عدیدة فیهذا الإطار، مثل قصیدة «ثورة النیل» التی احتوت علی ٤۵۰ بیتاً، و قصیدة «الجمهوریة العربیة المتحدة» ۱۷۰ بیتاً.

فیهذه الفترة تسارعت الأحداث فیالمنطقة، حیث شهدت إعلان الوحدة بین مصر و سوریا فیعام ۱۹۵۸م و قیام الجمهوریة العربیة المتحدة، کما أعلن فیعام ۱۹٦٤م عن

Archive of SID

www.SID.ir

تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية «كممثـل» شـرعى و وحيـد للـشعب الفلـسطينى، هـذه السلسلة من التحولات أحيت الأمل فى خلاص الوطن من مخالـب الاسـتعمار، و أذكـت فى‌نفوس الشعراء الفلسطينيين المعاصرين جـذوة الطموحـات العريـضة فـى‌العـودة إلـى الديار. و بقيت تلک الجذوة متقـدة علـى‌الـرغم مـن هبـوب ريـاح الأزمـات و القلاقـل على‌العالم العربى، كما حصل فى‌قمع ثورة ١٤ تموز فى العراق، و الانتكاسة التى شـهدتها مسيرة الوحدة بين سورية و مصر و التى توّجت بالانفـصال، و قـد كـان وجـود الـرئيس عبدالناصر على رأس السلطة فى مصر و شعار التحرير الذى ما فتئ يردده كفـيلاً بإشـعال لهيب حماس الجماهير العربية و قـد انعكـس عزمـاً و إصـراراً علـى مواصـلة النـضال و الصمود فى‌الشعر الفلسطينى المعاصر، و من النماذج البارزة على ذلک الشاعر الفلـسطينى محمد العدنانى الذى كان شعره فى‌بداية الأمر يرسم لوحـة قاتمـة و مظلمـة عـن الظلـم و التشرّد، لكنّه تمرّد على هذه الحالة، و عاد ليضخّ مقـولات الأمـل بالمـستقبل فـى‌قـصائده (العدنانى، فجر العروبة، ص٩٦):

صبـــرنا علـــى الجلى فنلنا بصـبرنا   أمانـــى ذللـنا اليــــها الرواســــــيا
ورحـــنا بجمهورية العـــرب نبـتنى   مـــن المجد صـرحا طاول النجم عـاليا
ونـنشىء مـَـعْ صنعاء أعظــم وحدة   بـها الأمـل الـمنشود أصبـح دانــــيا
لها جحفل يعنو له الدهـــر خاشعا   و يـــهرب منه عـسكر الغرب خاشيـا

كذلک الشاعر كمال ناصر الذى رسم فى‌أشعاره سبل الخـلاص مـن قبـضة الاحـتلال الصهيونى بمساعدة عبدالناصر(ناصر، ص٢٩٨):

انها قصة شعب ضللوه
و رموه فى‌متاهات السنين
فتحدى و صمد
و تعرى و اتحد
ومضى يشعل ما بين الخيام

Archive of SID

www.SID.ir

ثورة العودة فی دنیا الظلام
قد أفاقت بعد أن طال المنام
تتململ
کفرت بالحب فی أرض السّلام
و هی تأمل
فاذا الحق نداء فی الضلوع
لهب ماج علی بؤس وجوع

أغراض الشعر الفلسطینی المعاصر

لا شکّ أنّ أغراض الشعر الفلسطینی تختلف کلیة قبل نکبة عام ۱۹٤۸م و بعدها، علی‌الرغم من أنّ الشعراء الفلسطینیین قد التزموا نفس الأسالیب الکلاسیکیة للشعر العربی، معفارق واحد و هو أنّه أصبح یتضمّن مفاهیم جدیدة تمحورت حول التشرّد و النفی و الذل و المهانة و الیأس و الاضطراب و التیه و انفراط عقد النظام الاجتماعی و الأسری و فی‌بعض الأحیان زخرت بمعانی الغضب و التمرّد، مع احتفاظ الشاعر بذکری الوطن حیة فی‌ذاکرته و التعبیر عن مشاعر الشوق و الحنین للعودة إلی أحضانه، و تصویر حجم الآلام و المعاناة التی یختزنها فی داخله من عذابات الغربة و مرارتها. و أوّل ما یتراءی للمتتبع للشعر الفلسطینی فی‌السنوات الأولی من النکبة طابع الحیرة و التیه الذی یخیّم علی الأعمال الشعریة، حیث لم یخرج من دائرة الیأس و عدم الثقة بالنفس و البکاء علی الأطلال و التفجّع کسبیل وحید للتنفیس عن الهموم و الحسرات التی تلجلج فی‌صدر الشاعر، و قد أدّی ذلک إلی فقدانه _ شأنه شأن بقیة أبناء شعبه – للتوزان النفسی ما انعکس علی قصائده و هو ما یتجلّی بوضوح فی‌قصائد أبی سلمی و محمود شفیق الحوت و برهان الدین العبوشی و غیرهم. والذی یقارن الأعمال الشعریة للشاعر محمد العدنانی قبل النکبة و بعدها یلمس هذه النقطة لمس الید، حیث آثاره الشعریة قبل

Archive of SID

www.SID.ir

النكبة تطغى عليها مظاهر الإعجاب و الفخر، فى حين أنّ قصائده بعد النكبة مثقلة بهموم اليأس و الهزيمة و التشرّد (العدنانى، اللهيب، ص٢٣):

يا بسمة عرفتها العرب حول فمى	غيضى فان المنى زلت بها قدمى
وأترع أليأس كأس النفس فاندفعت	ولهى تخبط فى يم من الظلم
و كلما لاح فى شطآنه أمل	خضت العباب بعزم غير منثلم
حتى اذا خلتنى ادركته رجعت	أحلامى الغُرُّ بى مخضوبة بدمى

و لا يختلف الحال بالنسبة لبقية الشعراء الفلسطينيين. فىالمقال الحاضر، نحاول تصنيف الشعر الفلسطينى بعد الاحتلال و نخوض فىأغراضه بالتفصيل لنتعرّف مضامينه المتعدّدة.

١. التشرّد

مع إعلان وقف إطلاق النار فى الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٩م، نزح حوالى مليون لاجئ إلى الدول العربية المجاورة مثل الأردن و سورية و لبنان و العراق و مصر، كما لجأ بعضهم إلى قطاع غزة و الضفة الغربية من نهر الأردن. و بالنسبة للذين لجأوا إلى الدول العربية فقد تمّ إسكانهم فى مخيمات بائسة تفتقد إلى أبسط شروط الحياة، و ما زاد الوضع إيلاماً الأوضاع المأساوية التى عاشها الفلسطينيون فىهذه المخيمات و عدم إصغاء الدول العربية المضيفة إلى مطاليب اللاجئين فىتحسين الأوضاع هناك، الأمر الذى جعل منها (المخيمات) «منافى وطنية» كما وصفها الشاعر يوسف الخطيب (الخطيب، ص١٤).

ظلّ الشعر الفلسطينى المعاصر يدور حول محور النكبة و آثارها و الإفرازات التى خلّفتها، مع تركيز أكثر على معاناة التشرّد و النفى، و قد حزّ فىنفس الشاعر الفلسطينى أن يجد شعبه فجأة بلا مأوى و البطالة تنخر فىجسده، و هو يعيش على المعونات العربية و يستجدى العطف و الإحسان من الحكام العرب، هذه الأوضاع و ما أعقبها من مآسى نكأت جرح اللاجئ الفلسطينى و أضفت زيتاً على النار المتأججة فىأحشائه، فراح

Archive of SID

الشاعر الفلسطینی یندب فقد الأهل و الأحبة، و یصوّر آلامهم أروع تصویر کما تجسّد ذلک فی‌قصائد الشاعرة سلمی الخضراء الجیوسی (الجیوسی، ص۷):

راعبا ضج الرنین ثم ذاک الصوت ملحاحا حزین
ارسلی غوثک شرقا کل أعمامک أمسوا لاجئین

لقد دفعت حرب عام ۱۹٤۸ الفلسطینیین إلی التشرد و إلی أن یهیموا علی وجوههم لیبحثوا عن مأوی لهم فی‌کل زاویة من هذه الأرض، فتمزّقت أوصال الأسر و تفرّق جمعها، و وجدت فی الخیام البالیة عزاؤها الوحید، تسرد لها حکایات الیأس و تشکی إلیها آلام التشرّد و الذل و المهانة. و قد أجاد الشاعر رجاء سمرین أیّما إجادة فی وصف معاناة الحیاة الیومیة للفلسطینیین داخل الخیام و افتقادها إلی أبسط مقومات العیش الکریم (سمرین، ص۲۱):

وصمة أنت فی‌جبین الدهور یا خیاما فی القفر مثل القبور
أنت مأوی للبؤس شیدک البغی بأید مخضوبة بالشرور
أنت سفر الآلام سطرک الظلم علی‌رسم حقنا المهدور
کم حوی نسجک الارث عزیزا یفسح الدمع فی‌فم الدیجور

و فی‌نفس السیاق، یبحث الشاعر أبوسلمی (عبدالکریم الکرمی) فی‌قصائده عن أسرته المفقودة و وطنه المغیَّب (ابوسلمی، ص۸۳):

زحفت ألثم أرضی و هی باکیة والقلب باک و راحت تتشی القبل
أهلی علی الدهر تدمینی جراحهم فی‌حبهم یتساوی العذر و العذل
خیامهم فی‌مهب الریح معولة و دورهم من وراء الدمع تبتهل
تقاذفتهم دروب العمر دامیة وأنکرتهم ربوع الأهل و المنزل
علی المشارف أعراض ممزقة وفی کهوف الربی الانسان مبتذل
أطوف أحمل أنی سرت نکبهم کأننی طیف سار و الحمی طلل
فی‌کل شبر شظایاهم مشردة و تحت کل سماء معشر ذلل

Archive of SID

www.SID.ir

و لعلّ قصيدة «الخيام» للشاعر كمال ناصر جسّدت المعاناة التى ذكرنا أصدق تعبير، و ارتقت بالمشاعر الجياشة فىالنفوس المتعبة إلى ذروتها، حيث اختلطت أحاسيس الموت بهموم التشرّد و الجوع و مرارة الذل و الموت البطئ، و رسم الشاعر فى قصيدته لوحة مؤثرة تصوّر وطأة الألم و العذاب و التنكر العربى لفلسطين و الإيغال فىالخيانة كما تروى فداحة الخطب بضياع الوطن و اغتصاب الأرض (ناصر، ص ٣٠٢):

مذعورة فى رحاب المكان ... مصلوبة منسية فى الزمان
حيرى على اوهامها فى المدى ... لاحب فى سمائها لاحنان
مشدودة فى الأرض معصوبة ... كأنما شدت بايدى الهوان
تناثرت نجومها خيبة ... فى أرضها تفضحها للعيان
أكفانها مشرعة للردى ... تطوى جراحات الردى فىأمان
يا خيمتى السوداء ظلى هنا ... ذكرى على أشلاء حكم جبان

من خلال مطالعتنا لأعمال الشعراء الفلسطينيين بعد الاحتلال سنلمس بوضوح انطلاق قرائحهم إلى أقصى مدياتها لوصف المصاعب و الظروف القاسية للحياة اليومية داخل المخيمات، و تجسيد الآثار التى أفرزتها كترسيخها لمشاعر الاغتراب و تفسّخ النظام الأسرى و الخوف و القلق من المجهول، و الفقدان التام للثقة بالنفس .... إلخ.

٢. اليأس، الدموع، الحسرات

ذكرنا آنفاً بأنّ الطابع العام للشعر الفلسطينى المعاصر فىالسنوات الأولى للاحتلال تمثّل فىصور الحزن و الأسى و اليأس، و كان الشاعر الفلسطينى يسجّل أحاسيسه من خلال عدسة الاحتلال، فكانت كتاباته أحياناً تسكب دمعاً و شجناً، و فىأحيان أخرى تزفر الآهات و الحسرات المنطلقة من ضرام نيران الحنين للعودة إلى الوطن، و النحيب على أطلال المجد العربى التليد، أو اختياره لبعض الرموز و التعابير التى تساعده على إغماض عينية إزاء حقائق الواقع المرير، ليحلّق فىأحلامه بعيداً علّها تكون بلسماً

Archive of SID

www.SID.ir

لجروحة و آلامة، و هذا ما اختاره الشاعر محیی الدین الحاج عیسی فی‌قصائده حین صوّر المصیر الأسود الذی حلّ ببلده (الکیالی، ص٢٣٩):

وهـا فلسطین الحبیبة قدجـــــــرت کـف القـــضا بمـــفجع و مـفـــــرق
ان قسموک فتلک قسـمة جائـــــر وجـد الـسیاسة فیــک أن تتــــمزقـی
أو أحرقوا بالنار أهلک عنـــــوة فالله یرقــب فــعل خــب احـــــــمق
أرض العروبة منذ حل بها الهــــدی قــــد هــودت یا عــــین بالدمع اشرقی

وکذلک زمیله هارون هاشم رشـید الـذی بکـی الفاجعـة التـی عـصفت بأبنـاء وطنـه فی‌قصائده مصوّراً الحدث أروع تصویر حتی تکاد نیـاط القلـب تتقطّـع مـن شـدّة الألـم (رشید، عودة الغرباء، ص٧٤- ٧٥):

کانت لنـــا أرض نفـیء بظلــــــها و علـی أیادینـا تــــدور و تـــثـمـــــــر
فـــاذا بـهـا فـــی لیـلة مشبـــــوبة أهـــوی بشامــخ عــــزنا المتـجبـــــر
و اذا بـنـا مــزق وراء عنـــائنـــــا نمـشی فیقتلـــنا الشـــقاء و یقـــبـــــر
کم فی‌الخیـام مدامـــع هتــــــانة أن مـرت الذکـری تـــمـــور و تقطـــــر
فلرب أم ودعــــت أبـناءهـــــــا یوم انتضوا سیـــف الکفاح و أشـــهـــروا
و مضوا وما عادوا سوی ذکری لهـم محـــزونة فـی‌کـل عــــــین تذکـــــر
ترکوا لهم فلـــذات اکباد مشـــــوا فی‌البؤس أشبـاحا تـذوب و تصــــــهـر
ولرب حـــسناء تتــــوق لخدرها لـهفاً فــیقـعدها الـــشقاء المعســـــــر.

لم یکن بالإمکان الاستمرار علی هذه الحالة، فقد حاول بعـض الـشعراء الفلـسطینیین البحث عن مخرج لتهدئة أحـزانهم و عـواطفهم، فلجـأوا إلـی تجـسیم هـذه الأحـزان و المشاعر فی‌قوالب طبیعیـة متعـددة، لإحـساسهم بوجـود وجـه مـشترک یجمـع الإنـسان بالمظاهر الطبیعیة المحیطة به، و بذلک استطاع الشاعر الفلسطینی التخفیـف مـن أحمالـه. و هو ما فعله الشاعر محمود سلیم الحوت

Archive of SID

www.SID.ir

فی‌قصیدته «النخل البخیل» حیث استطاع أن یرسم علاقة وثیقة و حمیمة بینه و بین النخلة، عبر وصفها بأنّها غریبة و شریدة عن أرضها و وطنها، لیکشف عن‌آماله المنسیة من خلال النخلة. یعبّر الشاعر فی‌هذه القصیدة بصدق و عذوبة عن حیاة الشعب و دموعه و حزنه، لیستعیض عن الدمع و الحسرة بموقف «المتأمّل الحزین». و فی‌قصیدة أخری له بعنوان «الطیر الغریب» یناجی الطیر باعتباره رسول یبثّ إلیه همومه و یسأله عن أحوال الوطن و ما جری علیه، و یحمّله أشواقه و حبّه إلیه (الحوت، محمود سلیم، صص۷٤،۱۱۱).

وهناک من الشعراء الفلسطینیین من حمل قلم العتاب و الشکوی ضدّ الزمن بسبب ظروف الیأس التی خلقها الاحتلال، مقتفین أثر الشعراء العرب فی‌الماضی فی‌تحمیل الدهر وزر آلامهم و عذاباتهم (الحوت، محمود شفیق، ص۱۷۷):

لله ما فعل الظلم الغشوم و ما ... أنزلت یا دهر من حقد و من نقم

کیف انتصرت علی شعب و ما وهنت ... منک القوی فی الضروس العارم الضرم

و البعض الآخر رأی فی‌تخاذل الحکام العرب و استسلامهم لإسرائیل سبباً لأوجاعهم و کوارثهم کما حصل مع‌الشاعر محمد العدنانی الذی أطلق العنان لقلمه فی‌اللوم و الشکوی (العدنانی، اللهیب، ص۱٤۱- ۱٤٤):

أیا زعماء قد حیرت فیکم ... فلم اعرف لکم وجهاً مبینا

علام أری شعوبکم جمیعا ... یبارون السحاب ندی ولینا

أ أنشأهم اله الناس مسکاً ... وأنشأکم نفایات وطینا

فمالکم تخاذلتم و إنا ... لیسعدنا اَذا کنتم مجمعینا

و ان شئتم بنا التنکیل یوما ... و محق نفوسنا فقراً و هوناً

فانا نشرب الازراء صرفا ... ولو حملت کؤوسکم المنونا

ولکن حاذروا ألا تجیئوا ... بها یوم الهلاک موحدینا

Archive of SID

www.SID.ir

۳. الحیرة و التشرّد

یغلب علی الشعر الفلسطینی بعدالاحتلال و لا سیّما فی سنواته الأولی، طابع الحیرة و التشرّد، حیث لا یملک الشاعر أمامها إلاّ البکاء و التفجّع، و التعبیر عن الحنین و الشوق إلی الدیار، و قد استثارت هذه الحیرة ردود فعل متباینة من الشاعر، تراوحت بین النقد اللاذع للأنظمة العربیة و التهکّم من أولئک الذین تعاونوا مع الصهاینة و سهّلوا لهم مهمّتهم، کما یتجلّی ذلک فی أعمال الشاعر محمد العدنانی، علی سبیل المثال فی قصیدة «حدیث الروح» أو «الجارة الدهیا» أو «جود لبنان» (المصدر نفسه، ص۱۱۷،۱۳۵،۱۳۷).

ومنهم من استسلم لعجزه و حیرته بسبب هول الفاجعة و عمق الکارثة، و راوح مکانه دون أن یحرّک ساکناً، فتملّکه شعور الإحباط و الخوف و التشاؤوم و النفور من الحیاة، کما یعبّر عن ذلک الشاعر ناصر عیسی فی‌قصائده، حیث یجد نفسه هائماً فی‌المتاهات و المنعرجات و أنّ جمیع الأبواب مغلّقة بوجهه (الأدیب، صص۲۸-۹):

أصبحت أخشی کل بارقة و أفر من نفسی الی نفسی
یا دهر حسبی فی‌الحیاة شقا أو لم یحِن مثوای فی‌رمسی

تتّخذ الحیرة و التشرّد معنی أکثر شفافیة و وضوحاً فی أشعار عصام حماد، فبعد مشاکل التشرّد و البعد عن الوطن و الأهل و الخلاّن، یجد الشاعر نفسه وسط ظلام حالک یسیر بغیر هدیً (الکیالی، ص۲٤۸- ۲٤۹):

یا لیل أین الدار والربع و الأهل
أین الحمی و الجار و کیف انطوی الشمل
و انفضت السمار یا لیل یا ویل

یا لیل أین مرابع الأنس التی ودعت فی‌غالی ثراها مهجتی
أحببتها حبی الحیاة و لم اکن لأطیق فرقتها ولاهی فرقتی
طیفان ما برحا خیالی لحظة وطنی الذی ضیعته وطفولتی
أین العذاری الحور فی جناتها یخطرن بین تأود و تلفت

Archive of SID

www.SID.ir

أین الربی الشماء و الشط و المنهـل
و الماء و الخضرا و الشادن الأکحـل
و الروضة الغناء یا لیل مـن أسال

۴- المقاومة و التضحیة فی‌سبیل الوطن

لم یألُ الشعراء الفلسطینیون جهداً من تسجیل حضور أدبی قـوی فـی‌ظـلّ الاحـتلال الصهیونی، حضور قلب المعاییر التی تحکم مسیرة الشعر الفلسطینی المعاصر رأسـاً علـی عقب، إذ لم تعد موضوعات اللجوء و التشرّد القضایا الرئیـسیة فـی‌الـشعر المعاصـر، بـل وقف رواد الشعراء من هذا الجیل یتأمّلون بـأمّ أعیـنهم مـا یعانیـه مـواطنیهم مـن مآسـی الاحتلال داخل الأراضی الفلـسطینیة مـن قتـل و تـشرید و مجـازر و تعـذیب و نفـی و مصادرة للأراضی و الممتلکات. و الحقیقة أنّ شعراء الداخل بحکم قربهم من الأحـداث و معایشتهم لها استطاعوا أن یقدّموا شعراً أکثر نـضوجاً و تماسـکاً، فمهّـدوا بـذلک لتعبئـة الإرادة الوطنیة للتصدّی لمشاریع التوسّع الإسرائیلیة و الوقوف بوجـه محـاولات التهویـد للمناطق العربیة. فی‌هذه الفترة راودت هـذا الجیـل مـن الـشعراء أفکـار النـضال المـسلح لتحریر الوطن، و قد کانوا هم أنفسهم مناضلین وضعوا قـضیة مقاومـة العـدو علـی رأس اهتماماتهم و نشاطاتهم. و حاولوا تجسید المصاعب و المآسی التی یعـانی منهـا شـعبهم عبر فنّهم، لینفخوا روحاً جدیدة فی النضال الفلسطینی و بالتالی تهیئة الأجواء لتعبئة شاملة و ثورة عارمة، و هو ما نلمسه جلیاً فی‌قصائد هارون هاشم «العودة ثانیـةً»، حیـث یـسلّط الضوء علی مظاهر الفقر و التشرّد الفلسطینی، محییاً فی نفس الوقـت إرادتهـم الـصلبة، و شجاعتهم فی الدفاع عن الوطن و السعی لتهیئة أسباب العودة (رشید، الأعمـال الـشعریـة الکامله، ص۹۶):

Archive of SID

www.SID.ir

أخـــی مهـــمـــــا ادلـهـم اللـــــی — ـل ســـوف نـــطالـــع الـــفـــجرا
و مـــــهما هـــــدنا الفــقـــــــر — غـــداً سنـــــحطـــم الفــقــــــرا
ستــعـــلو صيـــــحة الاحـــــرار — يـــوم نـــــطالـــــب الثـــــــأرا
و تمـــــضی جلــــجلات الـــــرع — ب ان بـــــراً و ان بـــــــحـــــرا
سنـــمشی مـــلء عـــــين الشـــــم — س نـــــحـــدو ركبــــها الحـــــرا
و نـــــطلع فــــــی الغد الآتــــــی — نــــجــوما حـــــرة زهـــــــــرا
غـــداً يــــــوم انطـــــلاق الشـــع — ب يــــوم الـــوثبــــــة الكبـــــری
غـــداً فـــــی زحـــمة الاقـــــــدا — ر ســـــوف نـــحـقـق الأمـــــــرا
فـــلــــسطيــــن التـــــــی ذهبت — ستـــــــرجـــع مـــــرة أخـــــری

فیقصیدة أخری بعنوان «نداء فلسطین»، يطلق صرخة إلـی شـباب فلـسطين لتـصعيد النضال و تحطيم جميع القيود و الأغلال، و بذل الغـالی و النفـيس فـی سـبيل الـوطن، و يدعوهم أن لا يغفلوا لحظة واحدة عن واجبهم المقدّس فیتحرير الأرض المغتصبة و الثأر من الأعداء، مبدياً تفاؤله بالنصر الأكيد (المصدر نفسه، ص۱۹۹):

شبـــاب الفدا يا شبـــاب الفـــــدا — فلسطين نادت فلبوا النـــــــــــدا
ودكوا الحصون حـــــصون العـــدا — شباب الفدا يا شباب الفـــــــــدا
ألا مـــرحـــبــــــا بالــــــــكفاح — و يا ألف لبــيک داعـــــی السلاح
سنـــمضی و نـمضی نـشق الـرياح — و نقتحم الهول ما أرعـــــــــــدا
نمـوت....نمـوت و تـــحيا لــــنا — منار الخلـود فلسطيننـــــــــــــا
مــــــدافــعنـــا و الســــــــلاح — وأبطالـــنا و الشبـــــاب الأبـــی
ستطرد من أرضـــها الأجنبـــــی — وتلقی به فـــی غـــمار الــــــردی

Archive of SID

ولا شکّ إنّ هذه المفاهیم نابعة من أحاسیس الشاعر الصادقة و قراءته المتأمّلة للواقع، و قدرته علی إیصال رسالة بناءة فی‌تلک الظروف المضطربة، و من الواضح أنّه لعب دور المناضل الصادق مع‌نفسه و مع شعبه، و من هنا اتّسم شعره بلون الخطابة و الحماسة.

مع‌ظهور جیل شعراء المقاومة، دخلت إلی الشعر الفلسطینی المعاصر مفاهیم جدیدة مثل المقاومة، الفدائی، الشهید، النضال، التحریر...إلخ، و ابتدع الشعراء تبعاً لذلک وسائل و أدوات فنیة جدیدة تمکّنهم من نقل هذه المفاهیم بدقة و إتقان، فتحوّل الشاعر الفلسطینی فی‌أعماقه إلی مناضل ثائر حمل روحه علی کفّه، فخلق بذلک علاقة حمیمة و قویة مع مشاهد القتال و الجهاد، و لا یخفی أنّ الشاعر قد أثّر فی‌هذه المشاهد و تأثّر بها، بمعنی أنّ شعر المقاومة أصبح فی‌خدمة النضال الوطنی، و فی‌المقابل، فإنّ النضال المسلّح ترک تأثیره العمیق فی‌تألّق الحرکة الشعریة و ازدهارها (یوسف، ص۸). و فی‌الحقیقة، فإنّ شعر المقاومة حمل رسالة تاریخیة خطیرة علی عاتقه، تضمّنت مفرداتها صیانة وجدان الشاعر و أحاسیسه من مظاهر الهزیمة و الیأس و الحرمان و تحطّم رموز الحضارة و التاریخ فی‌أرضه، و إبداع القصائد التی تستصرخ الصحوة و الصمود و التضحیة و الکفاح المسلح و تعبئة الجماهیر للتصدّی للمحتل بکل ما تملک من إمکانات و طاقات، و الاتکاء إلی قدرات الشعب بدلاً من اللجوء إلی الحکام العرب. و قد عبّرت فدوی طوقان فی‌قصائدها عن هذه المعانی بوضوح و دقة، مع‌شعور بالإحباط و المهانة بسبب استسلام العرب أمام الصهاینة، لکنّها مع‌ذلک تهیب بالأحرار من الشباب الفلسطینی أن یهبّوا هبة رجل واحد لتحریر وطنهم من نیر الاحتلال (طوقان، ص٥٤٥):

یا فلسطین اطمئنی
أنا والدار و أولادی قرابین خلاصک
نحن من أجلک نحیا و نموت ....

نفس الحال بالنسبة للشاعر توفیق زیاد الذی ما فتأ یطلق قصائده التی تشحذ الهمم من أجل المقاومة و الصمود و السعی لإبقاء الکیان العربی فی فلسطین حیاً نابضاً، و

Archive of SID

www.SID.ir

الحفاظ على التراث الحضارى لأرض الآباء و الأجداد. و قد أنشد قصائده على لسان الأشاوس الذين حملوا مشعل المقاومة لينيروا درب المناضلين (ص۱۹۷– ۲۰۱):

كأننا عشرون مستحيل
فى‌اللد ... فى‌الرمله ... و الجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
و فى‌حلوقكم
كقطعة الزجاج... كالصبار
و فى‌عيونكم زوبعة من نار
إنا هنا باقون
فلتشربوا البحر
نحرس ظل التين و الزيتون
و نزرع الأفكار... كالخمير فى‌العجين
برودة الجليد فى‌أعصابنا
و فى‌قلوبنا جهنم حمرا
و اذا عطشنا نعصر الصخرا
و نأكل التراب ان جعنا
و....لانرحل....
و بالدم الزكى لانبخل
هنا...لنا ماض و حاضر و مستقبل

استنتاج

نستشف ممّا ذكر عن خصائص الشعر الفلسطينى المعاصر بعد الاحتلال ملاحظات رئيسية نجملها فى:

– التركيز على عروبة الشعب الفلسطينى و الكيان الفلسطينى.

Archive of SID

www.SID.ir

– السعى لتجاوز حالة اليأس و الإصرار علىالبقاء داخل الأراضى المحتلة.

– شحذ الهمم من أجل تحرير الأرض من براثن الاحتلال و عودة اللاجئين إلى الوطن.

– دحر المخططات الإسرائيلية الرامية إلى تهويد الأراضى الفلسطينية.

– التنديد بقرار الجمعية العامة القاضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية و يهودية.

– تصوير أبعاد المأساة التى حلّت بالشعب الفلسطينى بعد نكبة ١٩٤٨ من تشريد و نفى و مجازر و نهب و قتل .... إلخ.

– التنديد بتأسيس دولة إسرائيل فىقلب الأرض العربية.

– التنديد بالنشاطات المحمومة للمحافل الدولية المتمثلة فى إرسال الوسطاء الدوليين أو تشكيل اللجان و عقد الندوات العقيمة.

– تجسيد الشوق العميق الذى يتملّك الفلسطينيين فى العودة إلى وطنهم.

– استذكار الموقع التاريخى و الدينى لفلسطين و التغنّى بأمجاد الحضارة العربية التليدة.

– توجيه الغضب و الحقد المقدس للجماهير الفلسطينية صوب المحتلين الصهاينة، أو الحكام الخونة العرب.

– دعوة الجماهير العربية إلى الثورة و النضال و التمسّك بعرى الوحدة و التضامن باعتبارها السبيل الوحيد لتحرير فلسطين من نير الاحتلال.

– استعراض المناسبات و الأحداث المختلفة من قبيل مشروع الوحدة بين مصر و سورية و العدوان الثلاثى على مصر، حرب تحرير الجزائر، قمع الثورة فى العراق، تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية و سائر المنظمات الأخرى.

– دراسة مختلف جوانب المرأة الفلسطينية و بيان مكانتها المرموقة فى مسيرة النضال و حركة المقاومة.

– بالإضافة إلى التطرّق لبعض الموضوعات المتفرقة مثل الوصف و الغزل و الرثاء.

Archive of SID

www.SID.ir

المراجع:

ابوسلمی (عبدالکریم الکرمی)، *أغنیات بلادی*، مطبعة الترقی، دمشق، ۱۹۵۹.

الأدیب، دیسمبر و مایو، الأعداد ۹ و۲۸، بیروت، ۱۹٦٦.

الجیوسی، سلمی *الخضراء، العودة من النبع الحالم*، دارالآداب، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹٦۰.

الحوت، محمود سلیم، *اللهب الکافر، دارالکاتب العربی*، بیروت ، ۱۹٥٤.

الحوت، محمود شفیق، *ملاحم عربیة ، دارالکاتب العربی*، بیروت، ۱۹٥۸.

الخطیب، یوسف، *دیوان الوطن المحتل، دارفلسطین*، الطبعة الأولی، دمشق، ۱۹٦۸.

رشید، هارون هاشم، *الأعمال الشعریة الکاملة*، دارالعودة، بیروت، ۱۹۸۱.

ـــــــــــ، عودة الغرباء، *المکتب التجاری*، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹٥۳.

زیاد، توفیق، *دیوان، دارالعودة*، بیروت، ۱۹۷۰.

سمرین، رجاء، *الضائعون، مطابع الشرکة الصناعیة*، عمان، ۱۹٦۰.

طوقان، فدوی، *دیوان (اللیل و الفرسان)* ، دارالعودة، بیروت، ۱۹٥٤.

العدنانی، محمد، *فجر العروبة، المکتبة العصریة*، بیروت، ۱۹٦۰.

ـــــــــــ، *اللهیب، المکتبة العصریة*، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹٥٤.

الکیالی، عبدالرحمن، *الشعر الفلسطینی فی نکبة فلسطین*، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، بیروت، ۱۹۷٥.

ناصر، کمال، *الآثار الشعریة، مقدمة*: احسان عباس، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر،الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹۷٤ .

یوسف، یوسف، *دور الشعر فی المعرکة، الاتحاد العام للکتاب*، تونس، ۱۹۷۷.

Archive of SID

www.SID.ir